وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية لكتاب
منشورات الطفل

سلسلة أعلام للناشئة
العدد
«١٢»

ميّ زيادة

ياسمينة النهضة والحرية

١٨٨٦ - ١٩٤١م



خليل البيطار

مـيّ زيـادة

ياسمينـة النهضة والحريـة

تصميم الغلاف
رفـاه الحـو

خليـل البيطـار

مـيّ زيـادة

ياسمينة النهضة والحرية

١٨٨٦ - ١٩٤١م

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢م

ميّ زيادة ياسمينة النهضة والحرية / خليـــل البيطـــار . -
دمشق: الهيئة العامة السورية للكتـــاب، ٢٠١٢م . - ٧٢ص؛
٢٠ سم .

(سلسلة أعلام للناشئة؛ ١٢)

١ - ٩٢٨: زيادة، مي ب ٢ - العنوان
٣ - البيطار ٤ - السلسلة

مكتبة الأسد

سلسلة أعلام للناشئة

«١٢»

« ميّ زيادة ترى ألاّ قيود للنفس العالية إلا قيود الأخلاق الطيبة، ولا جدران إلاّ جدران الحرية» .

د. يعقوب صرّوف

مدخل

عصر ناهض ومخاض عسير

كانت الحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت على مصر وسورية – رغم كوارثها – محطة نبهت العرب إلى بؤس واقعهم، وبصرتهم بحقوقهم الطبيعية وحاجاتهم، وأيقظتهم من سبات طويل فرض عليهم خلال قرون الاستبداد العثماني. فقد أبصروا ما بلغته أمم أوربا من تقدم علمي وثقافي، وما أنجزته من قوة حربية، وما كشفه علماء الحملة الفرنسية من حضارات قديمة ازدهرت في المنطقة.

وقيض لمحمد علي والي مصر أن يختار مشروع بناء دولة قوية، وأن يعتمد على مساعدة الدول الغربية الطامحة إلى مد نفوذها نحو الشرق، فبنى القلاع وأنشأ جيشاً وأسطولاً قويين، واستقبل البعثات العلمية والإرساليات التبشيرية، وأصلح الزراعة، وبنى الجسور والقنوات وحاول بسط نفوذه على بلاد الشام وضمها إلى ولايته بالقوة، وخاض حرباً ضد السلطنة، ووصلت جيوشه بقيادة ابنه إبراهيم إلى مشارف عاصمة السلطنة القسطنطينية، فأثار حفيظة الدول الغربية، التي

سارعت إلى نجدة السلطان، وأجبرت جيوش محمد علي على التراجع إلى مصر، ولم ينل محمد علي من هذه الحرب سوى موافقة السلطان على أن تكون مصر ولاية له ولأولاده من بعده.

ووجه محمد علي البعثات الدراسية إلى فرنسا، وأشهرها بعثة "الأنجال" التي شارك فيها عدد من أولاده، وعين رفاعة الطهطاوي إماماً للبعثة باختيار من الشيخ حسن العطار إمام الأزهر. وعاد أفراد البعثة بعد أعوام قليلة بأفضل النتائج، وصبوا جهودهم في وجوه إصلاح التعليم والقضاء والأزهر، وتنظيم العمران، وتوسيع الترجمة، وتطوير الصناعات والحرف. وغدت مصر المستقرة سياسياً، والمزدهرة علمياً، قبلة الدارسين والتجار والهاربين من استبداد ولاة الدولة العثمانية في دمشق وحلب ولبنان وفلسطين، وخصوصاً بعد النقلة التي أحدثها الخديوي إسماعيل في الحياة الاقتصادية والعلمية والثقافية، فكان حفل افتتاح قناة السويس حدثاً تاريخياً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لا من حيث الأبهة الاحتفالية الباذخة فحسب، بل من حيث القيمة الاقتصادية والعلمية والثقافية. وظهر الاهتمام الأوروبي الكبير بمصر والمنطقة، من خلال الحضور الواسع للملوك والملكات والأمراء والأميرات الذين لبوا دعوة الخديوي.

ومنح إسماعيل بعض الحرية للصحافة، ومنح امتيازات لاستيراد المطابع، فوفد كثير من الذين درسوا في مدارس الإرساليات، من سورية ولبنان، أو الذين اضطهدوا من الولاة العثمانيين أو من المرجعيات الدينية الإسلامية أو المسيحية إلى مصر للدراسة والعمل، ولتدارس الوسائل التي تمكنهم من رفع الظلم عن كاهل أهل وطنهم. كما وفد العديد من الأسر المسيحية من لبنان إلى مصر بعد أحداث عام ١٨٦٠ الطائفية، كما وفد تجار كثيرون طمعاً في توسيع تجارتهم، وهرباً من الاضطرابات في ولايات المشرق.

وأمام اتساع نفوذ البورجوازية الصاعدة في أوربا، وشركاتها التي انتشرت في الشرق، وأمام ضغط الفئات الاجتماعية التي فتحت عيونها على حقوقها وحاجاتها وعظم بؤسها، بدأ النظام الإقطاعي الاستبدادي بالتفكك، وبدأت إصلاحات أولية في كل من الإمبراطوريتين الروسية والعثمانية، لكن الحروب وبذخ السلطة العليا بدد الثروة العامة، وأثقل كاهل الفئات الفلاحية، وكبر دين السلطنة للدول الغربية، فمنحت امتيازات كثيرة للشركات الأجنبية، وكبر دين مصر بسبب تبذير الخديوي وبطانته، فاشتد النفوذ الغربي فيها، وشعر وطنيوها بالإذلال فقامت ثورة شعبية بقيادة أحمد عرابي (١٨٤١ -١٩١٠)، سطرت رغم إخفاقها صفحة ناصعة في تاريخ مصر السياسي والوطني.

ولم تكـن الحيـاة الاجتماعيـة بمنـأى عـن هـذه التحـولات السياسية والاقتصادية، فقد نمت الثروات الخاصة، وتحسنت التجارة، وتحسنت معها علاقات مصر بمعظم دول أوربا وخاصة فرنسا وإيطاليا واليونان، واهتم عدد من المستشرقين بتاريخ مصر، وبدراسة أنماط معيشة الشرقيين وسلوكهم، ووفد إلى مصر باحثون وشيوخ مستنيرون من الشرق أو من أوربا لإعداد بحوث أو للتفكير في إصلاح أحوال المسلمين، ومن هؤلاء جمال الدين الأفغاني الذي جمع حوله مريدين ومناصرين كثيرين أمثال الشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا، والمحامي والصحفي عبد الرحمن الكواكبي.

وأنشئت في بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر المجلات والصحف ومنها مجلة الهلال التي أسسها جرجي زيدان، وجريدة الأهرام التي أسسها سليم تقلا وشقيقه بشارة. كما أسست مجلة الوقائع التي رأس تحريرها أحمد فارس الشدياق، وتأثرت الأسر المتعلمة والتجارية بنمط الحياة الغربي، وبدأت تتفنن في طراز العمارة والهندام والطعام وحب الموسيقا، وبدأ صراع حاد بين تيارين عريضين في الثقافة والتفكير وفي النظرة إلى إصلاح نظام الحكم لجهة توسيع المشاركة العامة في القرارات السياسية: تيار سلفي يتمسك بظاهر النص الديني وأحكامه، ويسعى إلى فرض رؤيته للإدارة والثقافة والهندام دون

اعتبار لحاجات التطور، وتيار إصلاحي لا يرى ضيراً في أخذ ما يفيد من نمط عيش الدول المتقدمة وأساليبها في الإدارة ونظام الحكم، مع المحافظة على قيم الشرق السمحة وهوية أهله. ودارت سجالات فكرية ومناظرات بين أنصار كلا التيارين على صفحات الصحف والمجلات.

وعبّد دعاة الإصلاح وتلاميذهم الطريق لمشروع النهضة، وساعدهم ازدهار الحياة التجارية في مصر، والاستقرار السياسي النسبي، واتساع التعليم وتحسين ظروف المرأة وتشجيعها على التعلم والعمل، وافتتاح الجامعة المصرية عام ١٩٠٨، كما وفر ضعف مركز السلطنة قدراً من الاستقلالية لولاية مصر ساعدها على تأمين مستلزمات الإصلاح والنهوض، ورعاية أهل الفكر والثقافة، وتكريم الأدباء ورجال الصحافة.

وقد تأثر الأدباء بالثقافات الغربية وبالمدارس الأدبية التي عرفت آنذاك كالمدرسة الإبداعية (الرومنسية)، والمدرسة الواقعية، والمدرسة الرمزية، وبرز تأثير التجديد أو التقليد في مناحي الحياة كلها.

ومن أعلام النهضة الفكرية والأدبية الذين حملوا لواء التجديد ودافعوا عنه، وصمدوا في وجه اتهامات التيار التقليدي السلفي لهم بمحاكاة الغربيين، وبالابتعاد عن سيرة السلف

الصالح، الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ -١٨٧٣) إمام بعثة الأنجال، والدكتور المهندس علي مبارك (١٨٢٤ -١٨٩٣) صاحب الخطط التوفيقية لتنظيم القاهرة، والشيخ علي عبد الرازق (١٨٨٨ -١٩٦٦) صاحب كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، والشيخ محمد عبده (١٨٤٩ -١٩٠٥) مفتي الديار المصرية، والأديب والشاعر الساخر عبد الله النديم (١٨٤٢ -١٨٩٦)، ورائدة تحرير المرأة زينب فواز (١٨٦٠ -١٩١٤)، ورائد تحرر المرأة قاسم أمين (١٨٦٣ -١٩٠٨)، وأستاذ الجيل والمحاضر والمترجم ومؤسس حزب الأمة أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ -١٩٦٣)، والمفكر والإعلامي سلامة موسى (١٨٨٧ -١٩٥٨)، والشيخ المستنير محمد رشيد رضا (١٨٦٥ -١٩٣٥) صاحب مجلة "المنار"، والإعلامي والمفكر فرح أنطون (١٨٧٤ -١٩٢٢) صاحب مجلة "الجامعة"، والمؤرخ والقاص والإعلامي جرجي زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) صاحب مجلة "الهلال"، والباحث حفني ناصيف (١٨٥٥ - ١٩١٩)، والحقوقي الثائر عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ -١٩٠٢)، والإعلامي والمفكر والعالم يعقوب صرّوف (١٨٥٢ -١٩٢٧) صاحب مجلة "المقتطف"، والمفكر الدكتور شبلي شميل (١٨٥٠ - ١٩١٧) صاحب مجلة الشفاء، والرائدة في مجال تحرير المرأة عائشة التيمورية (١٨٤٠ -١٩٠٢)، وأحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ -١٨٨٧) صاحب مجلة الجوائب، والشاعر والأديب ولي

الـدين يكـن (١٨٧٣ -١٩٢١) والمترجـم فـيلكس فـارس والأديـب محمد تيمور وسواهم.

وشق مشروع النهضة طريقه عبر مخاض عسير، وجهد شاق بذله الرواد الأوائل لنشر مفاهيم جديدة وقيم معرفية يحترم فيه الاختلاف في الـرأي، ويدار الحوار بطريقـة متحضرة بعيداً عن التكفير والتهم التي لا تستند إلى حجة دقيقة. ويحترم تعدد الآراء لأن الطرق إلى الحقيقة متعددة.

كما سـاهمت الترجمـة والطباعـة بنقـل الكثير مـن الإبـداعات الغربيـة إلى القـارئ العربـي، وإثـراء أسـلوبه وتخليـصه مـن قيـود الإطناب والسجع والتكلف، وصقل ذائقته التي تعودت على إيقـاع الـشعر ونغـم النثـر المـسجوع، ودفعهـا إلى تأمـل الـصورة المجـددة والمعنى الدقيق والسبك المتقن.

ودارت معــارك فكريــة بــين ممثلــي التيــارين الإصــلاحي النهضوي والسلفي التقليدي منها المعركة التي دارت بين شيوخ الأزهر، وكانت المعركة الأولى حول كتاب الشيخ علي عبد الـرازق وعنوانـه "الإسـلام وأصـول الحكـم"، وأدت إلى محاكمـة الكاتـب وفصله مـن الأزهـر، والثانيـة كانت حول كتاب د.طه حسين "في الشعر الجاهلي" وأشار فيه إلى وجود قصائد منحولة أو أبيات أضـيفت إلي القـصائد في أزمنـة لاحقـة، ولا تنتمـي إلى أسـلوب

العصر الجاهلي، فثارت ثائرة التقليديين المهيمنين على المؤسسات التعليمية، وعوقب الباحث التنويري بمصادرة الكتاب، وبفصله من الجامعة.

وكان نصيب ميّ زيادة (١٨٨٦ -١٩٤١) أن تعيش في قلب المخاض العسير لولادة عصر ناهض.

وإذا عد أعلام النهضة العربية الحديثة فإن ميّ زيادة إحدى دعائم هذه النهضة، وإن ذكر أبرز المساهمين في تحرر المرأة العربية فإن مساهمة ميّ زيادة تأتي ضمن أوائل المساهمين والمساهمات في هذه المهمة الصعبة والنبيلة. وإذا استعرضنا أهم المنتديات الحوارية والثقافية والأدبية في مصر وسورية أوائل القرن العشرين، لرأينا أن منتدى ميّ زيادة في الصدارة بين تلك المنتديات والصالونات الأدبية.

تنقلت ميّ زيادة بين الناصرة وبيروت والقاهرة ودمشق وباريس، وحملت معها عطر الأماكن التي زارتها، ونهلت من ثقافة مدارسها ومفكريها وأهلها. وكدّست تجربة في فن القول والكتابة، وفي لباقة المحاورة والنقد، وفي تناول المسائل المعقدة بإعمال العقل والتعاون والبحث الجادّ عن الحلول، وعبّرت بجلاء عن صدق انتمائها لشرق أرادت له النهوض، ولوطن عربي عشقته، ولعواصم ومدن احتضنتها وألهمتها مواد الكتابة، وموضوعات الدأب والحماسة المتّقدة.

وسجلت ميّ في مذكراتها وقائع طفولتها، وأيام دراستها، وعمق مشاعرها وارتباطها بالأماكن التي عاشت فيها، كما تحدثت عن أصدقائها الكثيرين الذين حاورتهم وتعلمت منهم، أو الذين راسلتهم وعرضت أمامهم رؤاها واقتراحاتها وأفكارها وملاحظاتها الناقدة الهادئة، كما سجلت تفاصيل رحلة حياتها الحافلة بالنجاحات والخيبات والأسرار، وأظهرت صبراً في المنعطفات ولحظات الوحدة والغربة، وقدرة على الخروج من أشكال الحصار ولحظات اليأس، وأسعفها طموح لا ينضب معينه إلى تحرير وطنها من التخلف، وتحرير بنات جنسها من التهميش، لأن تحريرهن مرتبط بشكل وثيق بتحرير الرجال أيضاً.

طفولة ميّ ودراستها

ميّ زيادة هي وحيدة والديها، واسمها ماري، وغلب عليها اسم ميّ الذي اختارته ووقعت به مقالاتها ورسائلها لنعومته وعلاقته الوثيقة بالتراث العربي، أبوها إلياس زخور زيادة، لبناني من قرية "شحتول" بقضاء كسروان، سافر أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر إلى قرية الناصرة عاصمة الجليل بفلسطين وعمل معلماً، ثم تزوج من فتاة فلسطينية من الناصرة اسمها نزهة معمّر، وكانت ولادة ميّ في ١١ شباط عام ١٨٨٦.

ودرست في مدارس الناصرة الابتدائية، وعند بلوغها الرابعة عشرة عادت إلى موطن أبيها كسروان، كي تتمكن من متابعة الدراسة في دير الراهبات بعينطورة.

وظلت الناصرة حاضرة في ذاكرة مي، تناجيها حين تبعد عنها، وتهمس لها حين تزورها بعبارات الوفاء والعرفان بالجميل. ألم تقض فيها أجمل لحظات الطفولة؟ كتبت في مذكراتها تناجي المدينة المحبوبة: "إيه يا ناصرة! لن أنساك ما دمت حيّة،

سأعيش دواماً تلك الهنيهات العذبة التي قضيتها في كنف منازلك الصامتة، وسأحفظ في نفسي الفتية ذكرى هتافات قلبي وخلجات أعماقي، لقد كنت لي مدينة الأزاهر العذبة، ومجال التنعم بأطايب الأوقات في وجودي" (المذكرات ص٢٣).

تابعت ميّ زيادة دراستها الثانوية في القسم الداخلي بدير الراهبات في عينطورة، وأتقنت دراسة اللغات الأجنبية إلى جانب اللغة العربية، كما أتقنت العزف على آلة البيانو، وأحبت الموسيقا والغناء، وتعوّدت على أسلوب الحياة المنظمة في مدرسة الدير. ولكنها أحسّت ثقل جو العزلة والتأمل، وأثّر ذلك على روحها التي تعشق الانطلاق وكسر الجمود والصمت. وقد كتبت في مذكراتها عن تأثير الغربة وأجواء نظام المدرسة القاسي على روح الفتاة المراهقة، وعن محاولتها معالجة آلام روحها بالعزف فقالت: "ما كدت أمس أصابع العاج حتى سحبت يدي، ما أشدّ البرد في البيانو، بل البرد في يديّ وروحي، البرد في وحدتي وغربتي. إني جليد ولكني جليد يتعذّب، وأشعر بأن كل ما في هذا الدير جليد حيّ ينبض ويتعذّب ويبكي".

كانت الموسيقا تنسيها وحدتها وغربتها عن محيطها ورفيقاتها، وقد شرحت ذلك قائلة: "إن الموسيقا لتخاطبني بلغة ليس أقرب منها إلى إدراكي وعواطفي، إنها تنيلني أجنحة وتطير بي إلى عوالم لا يطرقها غيرها".

تخرّجت ميّ زيادة من مدرسة دير الراهبات في عينطورة عام ١٩٠٤، وعادت إلى أسرتها في الناصرة.

انتقلت أسرتها إلى مصر عام ١٩٠٨، وهو العام الذي أعلن فيه الدستور العثماني، وكان الخديوي عباس حلمي باشا والي مصر، وقد أحبه الناس لاهتمامه بأوضاع الفئات الشعبية، ولمشروعاته التي نفذها في بدايات عهده، واستقرت الأسرة في القاهرة.

ثقافة ميّ وأساتذتها

وسمات شخصيتها

تفوقت ميّ زيادة على رفيقاتها في الدراسة والتحصيل. وأكسبها اطلاعها الواسع على كنوز التراث العربي فصاحةً وتعبيراً واضحاً. كما أفادت من اطلاعها على بعض كنوز الأدب الأوربي، فزادت معرفتها واغتنت تجربتها الفكرية والحياتية. ومنحها الترحال بين القاهرة والناصرة وبيروت وحيفا ويافا وكسروان ثقة عالية بالنفس، ومعرفة عميقة بأحوال السكان وحاجاتهم ومعاناتهم.

وفتحت لها حرفتا التعليم والصحافة اللتين قاربتهما وأحبتهما أبواب التعارف والصداقة مع أدباء ومفكرين وصحفيين كثيرين في مصر ولبنان وفي بلاد المهجر. وكانت مصر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مقصد الأدباء السوريين واللبنانيين، فقد انتقلوا إليها ابتعاداً عن ظلم السلطة

العثمانية، وطلباً لكنوز المعرفة التي زخرت بها مصر الناهضة، وسعياً لتجميع القوى التحررية والنخب العلمية، وتخليص الشعب العربي من الاستبداد والتسلط والجور.

وأفادت ميّ زيادة من ثقافة والديها المتعلمين، ومن علم أساتذتها وملاحظاتهم، كما تأثرت بأسلوب عدد من روّاد النهضة ورائداتها ومن بين هؤلاء: أحمد لطفي السيد الذي سمي "أستاذ الجيل" وكان أستاذاً للدكتور طه حسين، وقد نشأت صداقة وطيدة بين الثلاثة، وتردد أحمد لطفي السيد ود.طه حسين إلى منتدى ميّ الأسبوعي.

وتأثرت ميّ بأسلوب مصطفى صادق الرافعي ونثره المتقن، وأفادت من أسلوب الشيخ مصطفى عبد الرازق وعباس محمود العقاد وجبران خليل جبران و د. يعقوب صرّوف صاحب مجلة «المقتطف»، والأب أنستاس ماري الكرملي، والأمير شكيب أرسلان ود.أنيس المقدسي وروز اليوسف، وتوفيق الحكيم وأحمد حسن الزيات وخليل مطران وخليل مردم وفخري البارودي وفارس الخوري، وقد راسلت هؤلاء الرواد وراسلوها، وكسبت احترامهم لاهتمامها الدائم بنشر الثقافة وتعميق المعرفة، وبتعليم المرأة وتحريرها من القيود التي كبلتها لعقود، ولبحثها الدائب عن وسائل إنهاض الشرق وتحقيق تقدمه.

دخلت الجامعة المصرية عام ١٩١٦ ودرست الآداب والفلسفة، وأتقنت خمس لغات محادثة وكتابة هي الفرنسية والإنكليزية والألمانية والإسبانية إلى جانب اللغة العربية، وكتبت بهذه اللغات في الصحف والمجلات حول قضايا الثقافة وقضية نهضة النساء العرب والشرقيات عامة وحول اللغة العربية ونهضة الأمم الشرقية.

ورأى معاصروها وأصدقاؤها الكثيرون ورواد منتداها أنها أضافت إلى صباحة الوجه وحلاوة الحديث ذكاء متيقظاً ولباقة نادرة، وقدرة بارعة على العزف والغناء، وملكت طريقة فريدة في إدارة الحوار. وذكر د.نقولا فياض أنها "كانت نادرة الذكاء واسعة الاطلاع، قوية الجاذبية لبقة وأنيقةً، لا يجالسها أديب أو شاعر حتى يعجب بها، ويظن أنها تحبه، فهي تتكلم بسهولة وبلغة صحيحة، ويرى من يصغي إليها أنه مأخوذ بتلك النغمة الآتية من الأعماق، تحمل آيات البيان إلى الآذان والأذهان".

مقالاتها وخواطرها وخطبها

طلب إدريس راغب أحد أثرياء القاهرة من ميّ زيادة تعليم أولاده، فقبلت بحماسة، ونشأ تقارب بين أسرة الثري وأسرتها، أدى إلى تولّي أبيها إدارة جريدة "المحروسة" التي يملكها الثري، ونجح والدها في عمله، واستطاع شراء الجريدة والمطبعة.

وغدا بيت والدها ملتقى للصحفيين والكتاب، يحاورون ويسألون وينتقدون، واستمعت مي زيادة إلى هذه الحوارات الغنية، وشاركت فيها وأضافت إلى معارفها مادة جديدة، ودخلت عالم الصحافة الرحب.

ونشرت مي مقالات وخواطر في جريدة "المحروسة" ونشرت مقالات وأشعاراً وترجمات في مجلة "الدهور"، وفي جريدتي "اسفنكس" و"إيجبشين ميل" الصادرتين بالانكليزية، ثم عملت في ثلاثينيات القرن العشرين محررة في جريدة "الأهرام"، وخُصِّص لها عمودان على الصفحة الأولى من الجريدة، ونشرت مقالات كثيرة في مجلة "الهلال" التي أسسها جرجي زيدان وفي جريدة

«السياسة الأسبوعية» وفي جريدتي "أبو الهول" و"التقدم المصري" الصادرتين بالفرنسية وفي جريدة "البريد المصري" التي صدرت بالإنكليزية.

في مقالة بعنوان "أين وطني" نشرتها مجلة "الهلال" في تشرين الأول عام ١٩٢٢ كتبت مي زيادة تقول: "أحب عطور تربة الجدود، ورائحة الأرض التي دغدغها المحراث منذ حين، وأحب الطرق الوعرة المتوازية في قلب الغاب، وتلك الملتوية على أكتاف الجبال كالأفاعي البيضاء، وتلك السبل الطويلة الممتدة، وكأن الغبار الذهبي منها ينتهي إلى قرص الشمس.

ولكن أيكفي أن نحب شيئاً ليصير لنا؟ رغم حبي اللافح أراني في وطني تلك الغريبة الطريدة التي لا وطن لها".

ومن مقالاتها التي ضمها كتاب "الصحائف" وكانت قد نشرتها في صحف الأهرام والمحروسة ومجلة المقتطف مقالتان تحدثت فيهما عن رأيها في الخلق وفي النقد وقالت في الأولى: "قضبان النوافذ في السجن تنقلب أوتار قيثارة لمن يعرف أن ينفث في الجماد حياة" الصحائف ص١٤، وقالت في الثانية: "في عالم المحسوس نهدم أولاً ثم نشيد، أما في عالم المعنى فالهدم يتم إذا شئت وأنت تبني" الصحائف ص١٥.

وفي مقالة بعنوان "تأمل هذه الحياة الإنسانية" نشرتها "الهلال" في كانون الثاني عام ١٩٢٥ كتبت تقول: "إنما حياة الإنسان على الأرض جهاد مستمر رغم كونها محض عبور، ورغم أننا نموت في بعض منا كل يوم، يخيّل أننا نتخبط في سبيلنا على غير رشد ولا تبصّر، وشرٌّ من ذلك أننا عوضاً عن تبادل التعاون مع الأنداد والأقران، فنحن لهم الخصوم قسراً والمنافسون".

وتناولت ميّ زيادة في مقالاتها وخواطرها وخطبها موضوعات عن الوطنية والإنسانية، ومكانة المرأة، ودور الثقافة في المجتمع، والمدنية، والنهضة، وأحوال الشعوب. وجمعت مقالاتها وخواطرها في كتب من بينها "أزاهير حلم" أول كتاب أصدرته، و"الصحائف"، و"سوانح فتاة"، و"كلمات وإشارات"، و"مد وجزر"، و"ظلمات وأشعة".

كتبت في "أزاهير حلم" تقول:

"دعوني أياماً، فإني لا أودّ أن أسمع إلا الحفيف الخفيف الموسيقي الحنون الذي تتنفس به هذه الأجيال .. ألا أبعدوا عني ولو حيناً أصوات البشر التي تتبطّن الحسد والحقد والغلّ".

وفي مقالة بعنوان "ما هي الوطنية" كتبت تقول:

" أيها الشرق .. يا شرقي الكبير الرهيب الرؤوف .. إنك لتتجمع تحت ناظري كلوحة مصوّرة، فأرى منك الفقر والجهل

والاضطراب والاحترام والانفعال، ليس فيك فيض الثروة ومعجزات الحضارة، ربوعك خالية مما لدى الأقوياء من صروح ومعاهد ومصارف ومعامل، ربوعك خالية من المتاحف والخزائن والودائع المجلوبة من قصيّ الأنحاء، إنك جاهل فقير مفكّك الأوصال، ورغم ذلك فأملي بك عظيم كالحياة والحرية، أي قوة هذه التي تشد وثاقي إليك؟".

فالشرق وطنها الكبير، وأحواله الضعيفة وفقره وتفككه تؤلمها، لكنها مشدودة إليه بوثاق قوي، يدفعها إلى إصلاح أحواله وإنهاضه وتحريره من ظلم الدول القوية.

وفي خواطرها تظهر رهافة إحساس وارتباط بالمكان الذي عاشت فيه، تقول في إحداها: "يصعب عليّ أن أبتعد عن مكان قضيت فيه بعض أيام أو بعض ساعات، ذلك لأني أترك فيه فلذات من صميمي، وبعضاً من ذاتي أحن إليه".

ورأت ميّ زيادة في إحدى مقالاتها أن "النفس الإنسانية متموّجة بعواطفها وأفكارها ورغائبها وميولها، وكذا أحوال الشعوب تصعد وتنحدر، وترتقي وتنحط، وتتقدم وتتقهقر.

وفي كتاب ميّ زيادة "ظلمات وأشعة" تساؤلات عن كنه الحياة والوجود وتحليقات إشراقية روحانية تبحث عن الجذور، وتستشرف الآتي، لكن الحياة تبدو مثل أبي الهول لا تكشف

أسرارها دفعة واحدة، وكلما كشفت أحدها تبينت لنا ضخامة الأسرار الخفية، وفي مقالة من الكتاب بعنوان "عند قدمي أبي الهول" كتبت تقول:

"لقد دفن نصفك الرمال المغيرة على علاك، وما زلت ترقب الشرق وتبتسم، ونحن تغزونا الكوارث وتفتك بنا الدواهي، فنظل نترقب ونرجو، أصحيح أن لغزك لغز الدهور؟ أم خلقك الإنسان رمزاً له كما خلق آلهته على صورته ومثاله؟ لماذا لا يكون ابتسامك الدائم صورة الأمل المتجدد أبداً فيه؟ أليس إنه مثلك لأنك مثله؟ أليس إن في أعماقه "أبا هول" شاخصاً أبداً في السماوات العلا، كلما ظفر بفجر وشروق لبث يتوقع بزوغ كوكب جديد وشروق شمس ساطعة؟" ظلمات وأشعة ص١١٦.

وفي مقالة "أين وطني" التي سبقت الإشارة إليها كتبت ميّ: "رضيت حيناً بأنه ليس للعلم والفلسفة والشعر والفن من وطن، أما اليوم فصرت أعلم أن للعالم والفيلسوف والشاعر والفنان وطناً، وأنا أجثو الآن خاشعة مرددة ما يشبه قول الفيلسوف القديم: إنما أريد صديقاً لأموت لأجله أو لأحيا به". كتاب ظلمات وأشعة ص١٠٧.

ومن خواطرها اللطيفة هذه الخاطرة الشعرية بعنوان "من ألحان الخريف" وهذه مقتطفات منها:

طافت ﻓﻲ الجوّ روح الخريف يا سورية

وعلى ضفاف النيل أنشأت ربّة الشعر تشدو

فخالجني الشعور بالوحشة

لاغترابي عن سحرك البعيد الخفيّ

وها يعاودني ذكر ربيعك البهيج

وعهد الساعات المفعمة هناء وصفواً

ولكن سرعان ما تولّت

وإني يا لبنان لأحدث نفسي بحديث صيفك

وأستعيد نداءات القلوب ذات الحب الراسخ العنيد

وتمتلكني حاجات النفوس الغضة النقية

من ظمأ إلى الحب وركون إلى الإيمان

وألقت ميّ زيادة خطباً ومحاضرات ﻓﻲ مناسبات ثقافية وتكريمية، وﻓﻲ النوادي الثقافية والأدبية التي استضافتها ﻓﻲ كل من القاهرة وبيروت ودمشق، فقد ألقت ميّ كلمة جبران خليل جبران التي أرسلها من نيويورك لتُقرأ ﻓﻲ الحفلة التكريمية التي أقامتها الجامعة المصرية لشاعر القطرين خليل مطران (١٨٧٢ - ١٩٤٩) عام ١٩١٣، بمناسبة نيله الوسام المجيدي، وقد كلفها

جبران بإلقاء الكلمة نيابة عنه، وقد قال جبران في كلمته :"التفت الأمير نحو نديمه قائلاً: يسرنا وجود الشاعر البعلبكي في بلادنا وسوف نقربه ونكرمه، وزاد بعد دقيقة بصوت منخفض: إنما الشاعر طائر غريب المزايا يفلت من مسارحه العلوية، ويجيء هذا العالم مغرداً، فإن لم نكرمه يفتح جناحيه ويعود طائراً إلى موطنه". كتاب كلمات وإشارات ص٢٤

وأضافت مي لكلام جبران قائلة: "الباقة الثانية أهديها إليك أيها الشاعر العذب، زهراتها - انظر إليها تعرفها - ليست إلا نثرات من روحك الجميلة، هذه باقتي خذها، إنما هي بعض ما تركته أنغام شاعر كبير في نفس فتاة شجية". كتاب كلمات وإشارات ص٢٨

وألقت ميّ كلمة طويلة في حفلة أقامها النادي الشرقي بالقاهرة يوم ٢٣ نيسان عام ١٩١٤، وحضرها حشد من أعضاء النادي وزوجاتهم وبناتهم، ومما قالته فيها: "إن المدنيّة لم تأتِ بتمام واجبها بعد، ولم تصلح من الأحوال إلا البعض اليسير أو المتوسط، وأنتم أيها السادة والسيدات تعلمون سبب ذلك النقص، وتعرفون موضع الضعف من مدنيّة القرون المنصرمة، ذلك الضعف الشائن والنقص الهائل ليس إلا تقهقر نصف الإنسانية، هو جهل المرأة. قال فيكتور هيجو الأديب والشاعر الفرنسي:

لـيس الرجـل وحـده الإنـسان، ولا هـو المـرأة وحـدها، بـل همـا الإنسان". كتاب كلمات وإشارات ص٣٢

وختمت كلمتها بالقول: "المتهكمون على المرأة كثيرون في هذا العصر الفوضوي، ولكن أنصارها أكثر، وهم من ذوي النفوس الكبيرة والرؤوس المفكرة، في مصر تشتعل شرارة الحياة، وإلا فماذا يعني وقوفي بينكم أيها السادة؟ وماذا يعني سكوتكم الجميل المملوء إصغاء تاماً وتشجيعاً قوياً وتفكيراً عميقاً؟ أتكلم الآن بحرقة كأني صوت المرأة الصامت منذ أجيال، وتستمعون إلي بإشفاق كأنكم نفس الرجل المشتتة منذ ابتداء الدهور، والصوت الخافت الذي لم يتعود إلا همس الطاعة وتمتمة التمرد المبهم، يرتفع الآن آتياً من بعيد، من عناصر الحياة جميعاً صارخاً: أيها الرجل لقد أذللتني فكنت ذليلاً، حرّرني تكن حراً، حرّرني لتحرر الإنسانية". كتاب كلمات وإشارات ص٤٠ -٤١

وألقت كلمة بمناسبة العيد الفضيّ لدار المعارف عام ١٩١٦، ومرور خمسة وعشرين عاماً على تأسيس دار النشر الشهيرة رأت فيها "أن العجائب الثلاث هي الكلمة والحرف والمطبعة، إذ من يتصور الحياة خالية من الكلام؟ ثم ولدت الأبجديات الهيروغليفية الخمس الأولى التي صاغ منها الفينيقيون أبجدية

"قدموس"، والتي أنتجت أبجديات اللغات السامية، ثم جاءت الطباعة على يد غوتمبرج لتيسر نقل الكلمات إلى القراء". كتاب كلمات وإشارات ص٥٨

وألقت خطبة في حفلة "عصبة الأدب" ببيروت أقيمت تكريماً لها، قالت فيها: "وطني يحتاج إليّ احتياجه إلى كل فرد من أبنائه وبناته. أريد أن أبعث حبي لأبناء وطني لهيباً. أريد أن أنسى صغائر الحياة وظلم الحياة وقيود الحياة، لأرتفع فوق ذاتي، فأضاهي أبناء وطني رفعة وجمالاً. أريد أن أتعب فأتقن عملي، وأسير وأبناء وطني في سبيل التقدم خطوة، أريد أن أحيا رغم الجراح والآلام، لأكون في حياة وطني الناهض حياة". كتاب كلمات وإشارات ص٦٢

وفي مقالتها "ظل الإله الثاني" أشارت إلى تحولات الاستبداد رغم تبدل الأنظمة وقالت: "يقولون: إن الطبيعة أم، فيا لها من أم عتية، تسعد ولداً لتشقي أولاداً، جاعلة حضنها الرحب ساحة لأشد المعارك وأفظع الحروب". كلمات وإشارات ص١٢٥

وقالت في كتابها "سوانح فتاة" الذي ضم عدداً من مقالاتها تشير إلى العلاقة بين الأدب والصحافة: "علقت على محاضرة للسيد بيرسي هوايت ألقاها في الجامعة المصرية وخالفته الرأي لأني أرى نفسي صحفية وأديبة في وقت واحد، وهذا غير موجود

لـدى الغـربيين فلكـل مجـال متخصـصـوه" ولفتـت إلى أهميـة دور الـصحافة وفرسـانها فقالـت: "أصـبح الـصحفيون زمـرة قويـة تخـشاها الأرض ومـن عليهـا، فهـم ينتقـدون القـوانين ويحـاجّون الحكومـات، ويـسنّون أوامـرهم للبـشر، ويبـسطون آراءهـم لأولي الحل والعقد". سوانح فتاة ص٥٢

وضم كتاب السوانح ٢٣ مقالة وخاطرة، ومسرحية من فصل واحد عنوانها "ساعة مع عيلة غريبة".

مراسلاتها وأسلوبها المجدِّد

في فن المراسلة

راسلت ميّ زيادة أعلام عصرها من كتّاب وشعراء وصحفيين ومفكرين وسياسيين، وراسلت عدداً من الناشطات في الحركة النسائية في مصر ولبنان وسورية، وممن راسلتهم وراسلوها: الشاعر خليل مطران والأديب عباس محمود العقاد والأمير سعيد عبد القادر الجزائري وباحثة البادية ملك حفني ناصف، ود.مرشد خاطر، ومحمد لطفي جمعة والمستشرق إينوري روسي والشيخ مصطفى عبد الرازق وروز اليوسف صاحبة المجلة التي تحمل اسمها، وهي تواصل الصدور حتى اليوم، وراسلت د. يعقوب صروف ونشرت في مجلته "المقتطف" مقالات وخواطر، وعدّته أستاذها، كما راسلت الشاعر والأديب جبران خليل جبران، وتأثرت بأسلوبه ونظراته إلى الحياة، وربطت بينهما علاقة حب نقي رغم بعد المسافة بين مكانيهما، إذ كانت ميّ في الشرق، وكان جبران مهاجراً إلى الولايات المتحدة الأميركية في أقصى الغرب.

وغلبت على موضوعات رسائلها مناقشة القضايا التي شغلتها مثل قضية إصلاح المجتمع وإنهاض المرأة، ومناقشة معنى الوجود الإنساني، ونقد الآراء الجامدة التي تضع العوائق في طريق تحرر المرأة ومشاركتها في الحياة العامة. والتعريف بالكتب الصادرة حديثاً وإبداء آراء نقدية لمضامينها.

وطوّرت ميّ زيادة فنّ المراسلة، شكلاً ومضموناً، إذ طرقت موضوعات جديدة لم يطرقها أحد قبلها مثل نقد الكتب والنجوى الداخلية والوصف البارع لتحولات الطبيعة والأسئلة الوجودية، وتناولت الموضوعات الكبرى المتصلة بحقوق المرأة، وسلكت أسلوباً يقوم على الطرافة والطلاوة والوضوح، ودقّة العبارة والتكثيف، وحسن الانتقال إلى الفكرة الرئيسية وبراعة المحاورة، وجعلت من الرسالة محوراً فكرياً لا علاقة له بالعاطفة، وكانت رسائلها حوارات شيقة تموج بالأحلام والسعادة والتوق إلى الكمال وتقديراً ممزوجاً بالتفهم لمكانة مخاطبها، وكانت تصب في رسائلها عقلها وقلبها وثقافتها الواسعة، وتوظف كل شاهد في موضعه ليؤثر في المرسل إليه، وتضيف إليها ما تتفوق به على سواها من ذكاء وأدب ولطف ودعابة وتقرب إلى درجة تجعل كل أصدقائها يحتفظون برسائلها ويستعيدون قراءتها مرة بعد مرة.

كتبت رسالة إلى إميل زيدان صاحب الهلال وناشر كتابها "سوانح فتاة" في تموز عام ١٩٢٢ تقول: "وأما كلماتك المشجعة الدالة على نفس فيها من الرقة بقدر ما فيها من التوقد فإني أتلقاها بالتمني الحار بتحقيق آمالك".

وكتبت رسالة إلى الأمير خالد الجزائري، حفيد الأمير عبد القادر، المقيم في بيروت تشكره على اهتمامه بأخبارها وتظهر اهتمامها بكل فرد من أفراد أسرته: الأبناء والبنات، وقالت: "أود أن يكتب إلي كل واحد منهم باللغة التي تروقه، فيحدثني عن دروسه وعن كل ما يهمه من الشؤون" مي وأعلام عصرها ص٤٩٠

وكتبت في رسالة إلى ملك حفني ناصف (باحثة البادية) تقول: "ما أطيب قولك يا سيدتي الباحثة! إنك تشفقين على من يستحق الشفقة، وعلى من لا يستحقها. الرجل من الذين يستحقون الشفقة، لأنه لا يعرف أنه يستحقها، إنه باستعبادنا لمنتحر، ولو صرفنا النظر عن مستقبل الذريّة، وبحثنا في حياته الفردية، لوجدنا أن ما من أحد يساعده على التخلص من الشوائب الشائنة، ويحثّه على إنماء شخصيته الغنية المخصبة إلا نحن، كما أنه لا يهدينا إلى واجباتنا، ويضع في ضعفنا قوة إلاه". باحثة البادية ص١٧٥

وكتبت باحثة البادية في رسالة إلى مي تقول: "إننا لا نهز عرش الرجل ليتداعى على السقوط كما تقولين، ولكننا نهزه لنطلب منه(الدستور)". فردت عليها مي وقالت: "يا من ارتفع قلبها إلى فكرها وانحنى فكرها على قلبها، أيتها الباحثة الحكيمة لماذا تصمتين؟"، وقالت مي في رسالة أخرى لها : "جئت أسرّ إليك أمراً، رأيت جمهور القراء يتقبل أقوالك بنظرة الفخر وابتسامة الإعجاب، ورأيت (أسيادنا) الرجال يطربون لتصريحنا بأنهم ظلمة مستبدون" باحثة البادية ص١٨٤ -١٨٥

فإنما شخصية الرجل تحتاج إلى دعم المرأة وحنانها ومساعدتها، وإنماء معرفة المرأة بمسؤولياتها ونهوضها بها على أكمل وجه، وبث القوة في شخصيتها تحتاج إلى دعم الرجل وتعاونه وثقته بقدراتها الكثيرة.

وكتبت رسالة إلى عباس محمود العقاد بعد قراءتها كتابه "الفصول" الذي أهداه إليها، ووقفت عند الفصل الذي انتقد فيه العقاد كتاب جبران خليل جبران "المواكب"، كاشفاً فيه أخطاء لغوية، ومتهماً جبران بالانحراف في الفطرة والخيال، وآلمت قسوته ميّاً المعجبة بأسلوب جبران، فكتبت تقول: " لاحظت قسوتك على جبران، وإن كنت أوافقك على بعض ما قلت،

وأعارضك في بعضه الآخر، ولا تتسع الرسالة لأن أقول لك ما أوافقك عليه وما أعارضك فيه".

وكتبت مي إلى الدكتور يعقوب صرّوف منتقدة أداء الصحافة، فقالت: "أفهم بالاختبار أن النقد عمل شاق ودقيق، يستغرق وقتاً طويلاً، ويتطلب معرفة واسعة وذوقاً مهذباً وبصيرة شفافة، وإحساساً حياً يفهم العدل كما يفهم الجمال، وكما يفهم أنظمة الحياة، فهو بذلك غير ميسور لكل من ادّعى حمل لوائه. والصحف في شاغل لانهماكها بالمشاكل السياسية والقومية، لتعرض على الأقل أسماء الكتل الصادرة حديثاً كي ينتفع القارئ بالاطلاع عليها".

وكتبت إليه أيضاً رسالة تشير إلى أهمية الصحافة ودور "المقتطف"، قالت: "المساعدة التي قدمها صاحب المقتطف للحركة النسائية في كل الشرق أعظم من مجموع الخدمة التي تقوم بها جميع نسائنا". المقتطف ١٦كانون الأول ١٩٢٤

وكتبتْ رسالة إليه، هنأته فيها بعيد ميلاده، وتحدثت عن دور الصحافة ومتاعبها وشقاء العاملين فيها، وعن دور مجلة "المقتطف" في التنوير والنهضة، فقالت: "أستاذي الغالي؛ اليوم عيد ميلادك، مثل اليوم جئت طفلاً صغيراً، مثل اليوم حللت ضيفاً خفيفاً في تلك القرية الخضراء من ساحل بيروت، يا لكثرة

ما ﱠ مجيء الأطفال من الأسرار! من يستطيع التكهن بكل ما يحمله المستقبل إليهم؟ وبما هم ﱠ المستقبل حاملون؟ أي بشر يستطيع تلمّس ما ﱠ إشارة اليد الصغيرة من رموز لأعمال باهرات؟ وما ﱠ صراخهم وبكائهم من نبرات القدرة الفكرية والسلطان؟" وأضافت مقدّرة مكانة مجلة "المقتطف" ودورها: "نعم بخشوع كليّ أنظر إلى مجموعة المقتطف، وبخشوع ألمس مجلداتها التي كتبتها كلمة كلمة، ونسّقتها فكَراً فكراً، وأصدرتها عدداً فعدداً. إن المستفيدين من هذا الكنز الثمين لا يعلمون كم تصرف أنت عليه من فكر وتعب، إن صياغة الأفكار أصعب وأوجع من صياغة المعادن الثمينة والأحجار الكريمة، إنها ليسكب عليها المرء أحياناً قوى نفسه، ويغذيها من حشاشته، ويرويها من دماء حياته، ولئن كان ﱠ ذلك مشقة فإن فيها مجداً عظيماً، وكأن المجد لا يدفع عنه إلا من دماء الحياة وسويداوات القلوب". القاهرة ١٨تموز ١٩١٩ صديقتك الصغيرة مي.

إننا نحس ﱠ ثنايا الرسالة صوت الأم والباحثة، والأستاذة ﱠ علم نفس الطفل، والعارفة بهموم الصحافة وأثقالها، وهي التي كابدت مسالكها الوعرة، والخبيرة بكنوزها، ونلمح التشجيع والدعم اللذين يحتاج إليهما كل صحفي كي يؤدي دوره على أحسن وجه.

وكتبت رسالة طويلة له تحثه على كتابة الشعر بعد قراءتها موشحاً من تأليفه وقالت: "يزعم الفرنسيس أن الله يريد ما تريده المرأة، أي أن المرأة إذا رغبت في شيء حصلت عليه، هذا إذا كانت امرأة فقط لا يعرّفها نعت، فكيف بها إذا كانت جديدة، أي امرأة مرتين؟ وإذاً هي تقدر على أن تحرك أغوار البحار وتثير الشجون والذكريات من مكامنها السحيقة". رمل الإسكندرية ١٤أب ١٩٢١ - مي وأعلام عصرها ص٣٢٥

وقد رشحته لنيل جائزة نوبل التي حصل عليها عام ١٩٠٦ الشاعر الإيطالي كاردوتشي ١٨٣٥ -١٩٠٧. كتاب مي وأعلام عصرها ص٢٠٠ -٢٧١

تبادلت ميّ رسائل عديدة مع محمد لطفي جمعة الذي حاورته وأعجبت بأفكاره، وكان موضوع إحدى رسائلها حول مضمون كتابه "ليالي الروح الحائر" الذي أصدره عام ١٩١٢ في القاهرة وأهداه إلى ميّ، وحول دور الابتكار والترجمة، ومضمون كتابه الآخر الذي ترجمه وعنوانه "مائدة أفلاطون". وفي رسالة مؤرخة في ٢٤ أيلول عام ١٩١٣ كتبت إليه تقول:

«جاء في كتابك يا سيدي فصل عنوانه "الروح المهتدي" وأراني مضطرة إلى الإقرار بجماله، وإن ساءني منه إصرارك على ظلم جنسنا المسكين، فضلاً عن التهم الفظيعة التي تتهمني بها، لقد

شقّ علي ظلمك أكثر من تهمك، لأني أوثر أن أكون مظلومة وحدي على أن يكون جنسي جميعه مظلوماً. وإن من الظلم المقصود ما لا تطيقه الأرواح.

يا سيدي الأستاذ؛ لقد تألمنا كثيراً وصمتنا طويلاً، وها نحن جامعاتٌ ما بقي من عزائم هانت على صروف الدهر، نجمعها ونتحفز للنهوض، فنحن في حاجة إلى مساعدة الأيدي القوية، نريد قلوب رجال حساسة تشفق، وأقلاماً قادرة تشجع، وبدون هذه المساعدة لا تتم نهضتنا إلا ببطء لا نتمناه.

يا سيدي الأستاذ، لا يسعني هنا إلا شكرك على ما تفضلت به من عبارات الثناء والتشجيع، ولقد ذكرتني بقول حكيم هندي: إذا شئت أن تنبه إلى محبة الأعمال العظيمة في نفس امرئ، بالغ بمدح حسناته وإن كانت صغيرة».

وطلبت مي من الأمير شكيب أرسلان أن يأذن لها بوضع مقالته عن كتابها "المساواة" في مقدمة الطبعة الثانية للكتاب، فأجاب: "هذا أشبه باستئذان أحد يقال له: هل ترضى أن نضع هذا التاج على رأسك؟". كتاب مي وأعلام عصرها ص٣٢٤

وقال لها فارس الخوري رئيس وزراء سورية الأسبق في رسالة يحثها فيها على زيارة لبنان وسورية: "زوجتي كثيرة التحدث عنك والشوق إليك، والناس أربعة أصناف: صديق لا عشير، وعشير لا

صديق، ولا عشير ولا صديق، وصديق وعشير"، وختم رسالته بالقول: "يعزُّ عليّ أن أختم هذه الرسالة وأقطع ما أشعر به وأنا أكتبها من لذة النجوى". كتاب مي وأعلام عصرها ص٤٩٧

ويُلحظ في رسائلها الإيجاز والموضوعية، واحترام المخاطب، وعدم إصدار الأحكام إلا برويّة واتّزان وبعد اطلاع كاف على الموضوع المعنيّ.

العمل الدؤوب لنهوض المرأة

اهتمت ميّ زيادة في رحلاتها وحواراتها، وفي مقالاتها وخواطرها ومراسلاتها بالبحث عن الطرق والوسائل التي تمكن المرأة العربية والشرقية عموماً من الوصول إلى حقوقها الطبيعية، التي تبدأ بحق الحياة والتعلم والتفتح، وتتسع لتبلغ حق العمل والمشاركة في الحياة العامة، وقد ثابرت على دعوة المفكرين ورجال العلم والنساء المتعلمات إلى التعاون، وتقديم كل عون ممكن من أجل بلوغ هذه الأهداف النبيلة.

وقد ألقت ميّ كلمة أمام عضوات جمعية "مصر الفتاة" عام ١٩٢١، نشرتها مجلة "المقتطف"، أوضحت فيها الفرق بين الخضوع الذي يرسخ العبودية، وبين الحرية التي تتيح الاختيار، ورأت أنه لا معنى للحياة حين لا يكون الإنسان سيد نفسه، وقالت في كلمتها:

«فلتكن مجموعة أعمالنا غاية جليلة نقوم بها عاليات الجباه، تحت أكاليل العزم والجهاد، وقد اختفت من عيوننا خيالات

الخضوع والمسكنة، وحلت محلها نظرة من لم تعد عبدة المجتمع، ولا عبدة الحاجة، ولا عبدة الرجل، ولا عبدة قلبها – وهو أعظم جائر مستبد – بل نظرة من أصبحت سيدة نفسها، تطيع مختارة وتعمل مختارة، بهدوء من فاز، أو قدّر له أن يفوز في الحياة».

ورأت ميّ زيادة أن المدنيّة كانت عرجاء حين اتكأت على جنس واحد هو الرجل، ووازنت بين حال المرأة قديماً وأحوالها الحاضرة في أوربا وفي مصر، واكتشفت أن المرأة إذا تعلمت زادت جمالاً وحناناً واحتراماً للعائلة وإجلالاً للرجل، وعرفت كيف تكون والدة الجسد وأم الروح والعواطف والأفكار والميول، والمهذِّبة الكبرى والصديقة العظمى". كلمات وإشارات ص٣٩

وألقت ميّ محاضرة في الجامعة الأميركية بالقاهرة، عرضت فيها مراحل تطور المجتمعات منذ مجتمع الصيد حتى عصر الصناعة، وبيّنت أن المرأة ظلت ماضياً وحاضراً تملك سلاح المحبة وقوة إلهام الرجل، ولم تكن مستهلكة فحسب، بل كانت توحي بالجديد، وتغذّي حركة الصناعة والتجارة والعمران، وقالت في المحاضرة:

«ملايين القرون انقضت والمرأة تكد وتنتج رغم انحطاطها في جهلها وانخذالها، انقضت القرون وجماهير النساء كرطب الرمال

على الشاطئ، يسير فوقها الرجل فيطبع فيها أثر قدمه. والمرأة في خدمتها وفي عملها الشاق وموقفها العسير تنسى أهميتها، وتجهل نفسها، فلا تجد ما تباهي به سوى المكانة الاجتماعية والثروة والجمال، أما ما يعتز به الفرد الإنساني من الشخصية المستقلة المكونة من الإرادة والضمير والمجهود، فذلك ما لم تكن تعبأ به المرأة، ولا هي استطاعت أن تتخيل وجوده، إلا في حقبات من التاريخ، وفي أحوال معينة».

وختمت ميّ محاضرتها بالإشارة إلى مكانة المرأة ودورها في حياة عظماء الرجال، وإلى التأثير المتبادل بينها وبين الرجل فقالت:

«ستظل المرأة دائماً الوحي الأكبر والمنهل الذي تستقي من مياهه الآداب والفنون، ومنه تتغذى، ولسنا هنا في حاجة إلى ذكر تأثير المرأة في حياة عظماء الرجال ... ولو لم يكن في قوم سوى مدرسة واحدة لارتأيت أن تخصص تلك المدرسة للبنات دون الشبان! لأن ما تعرفه المرأة يتعلمه الرجل بطبيعة الحال منذ الصغر، وأهم من كل شيء آخر، العقلية التي يولد بها الطفل، والنفسية التي يشبّ عليها، وهي بالطبع عقلية أمّه ونفسية المرأة التي تحيط به، وإنماء عقلية المرأة وتوسيع نفسيتها إنما هو بيد الرجل دون سواه، لأن المرأة تهذب الرجل، وهي التي تضمن

استمرار المدنيّة ونموها وازدهارها بالرجال الذين تنجبهم مهذبين بواسل رشيدين، أما الرجل فهو الذي يخلق المرأة خلقاً».

وقصدت ميّ في خاتمة محاضرتها التأكيد على أهمية تعليم الفتيات، وخصّت الفتيات بذلك نظراً لحرمانهن من حق التعليم أوائل القرن العشرين، ولم تقصد أن تعليم الشبان غير ضروري، ورأت أن الأم لها الدور الكبير في تشكيل شخصية الطفل في سنواته الأولى، وهي القادرة على نقل المعارف إليه حين تكون متعلمة.

ودعت ميّ الكتاب والمثقفين إلى بذل كل جهد لرفع الظلم عن كاهل النساء، وطالبتهم برفع الصوت لتحقيق هذا الهدف، وفي رسالة غير معروفة وجّهتها إلى محمد لطفي جمعة قالت فيها:

«يا سيدي ارفع صوتك وتكلم، اصرف شيئاً من بيانك وأرشد، اعمل في ملاشاة الجهل لتفتك بالتعصّب، وتزرع قيمة معرفة الحياة. إن من عرف قيمة الحياة في نفسه أقر بوجود مثل ذلك في نفوس إخوانه، وكان أشد الناس ميلاً إلى التساهل والإنصاف، وهما مع التعاون قوائم ثابتة للسعادة الاجتماعية، ثم أرجو أن يكون لك الوقت بعد الوقت كلمة طيبة، كلمة إشفاق في شأن المرأة المظلومة، وأؤكد لك أن المظلومات كثيرات».

وذكرّت ميّ صاحب كتاب "ليالي الروح الحائر" أن الوفاء بالوعود التي يقطعها الكاتب مهم جداً، وأن ربط القول بالفعل

هو مفتاح بلوغ الأهداف. ومزجت التساؤل بالسخرية ومشاعر المرارة بالتصميم على مواصلة عملها بدأب، وقالت: "أين "ليالي الروح الحائر" أيها "الروح المهتدي"؟ لعل نسيان الوعود من مميزات الأرواح المهتدية! من يعلم؟ ولكنْ أنا ما زلت روحاً صغيراً حائراً، فلا أفهم المعاني إلا كما تفهمها الأرواح الحائرة، لذا لا أفك روحاً من وعده، ولو تألّبت عليّ قوات الطغمات التسع، وحاربتني جنود السماء جميعاً".

وألقت ميّ محاضرة في النادي الشرقي بالقاهرة عام ١٩١٤، وبينت علاقة المرأة بالتمدن، وقالت: "إن النهضة النسائية تمتد يومياً في أقاصي المسكونة، إنها لنهضة عجيبة تبشّر بخير عظيم، وتتبئ أن مدنية الأمس العرجاء التي لم تتكئ إلا على جنس من الجنسين هي غير مدنية الغد الممتعة بتحقيق الأماني، وليست مدنيّة الرجل وحده بل هي مدنية الإنسانية، لأن المرأة آخذة بالصعود إلى مركزها الحقيقي بقرب الرجل، أليس فيكتور هيجو هو القائل: إن تحرير المرأة يحل أكثر المشاكل الاجتماعية وبعض المشاكل المدنية، وإنه ينتظر منها وحدها إلغاء الحروب في العالم؟". كلمات وإشارات ص٤٠

ودعت ميّ زيادة إلى المساواة بين المرأة والرجل، وألّفت كتاباً عنوانه "المساواة" نشرته دار الهلال عام ١٩٢٢، دعت فيه إلى

إنصاف المرأة ومنحها حقوقاً متساوية مع الرجل، لكن مفهوم مي عن المساواة في الكتاب ظل عامّاً غائماً، واقتصر على توفير الاحترام والإفساح في المجال للتعلم والعمل، دون أن يرقى إلى تأمين الحقوق القانونية، أو المشاركة السياسية، ولم تبتعد كثيراً عما طرحه رائد تحرير المرأة قاسم أمين ١٨٦٣ -١٩٠٨ في هذا الشأن وهو صاحب كتابي "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة"، لإدراكها وهي الشرقية ووحيدة والديها، أن المجتمع الشرقي له خصوصيته، وأن القوى التقليدية المحافظة فيه والمحيطة بالنخبة الحاكمة تعيق التجديد والتطور، ولمعرفتها بالاطلاع والتجربة أن القوى الواقعية ومستوى تطور المجتمع تحدد إلى درجة كبيرة حجم الحاجات والمطالب وإمكانات التحقيق.

منتدى ميّ الأدبي وإدارة الحوار

أخذت ميّ زيادة عن والدها المعلم والصحفي وصاحب جريدة "المحروسة" القدرة على محاورة رجال الفكر والقلم. وجمعت إلى جانب إباء أهل كسروان والناصرة نظام مدرسة الإرسالية التبشيرية في عينطورة، وإتقان اللغات الأجنبية والاطلاع الواسع على مختلف ألوان الثقافة، وتوفرت لها مقومات التفتح والانطلاق وقوة الحضور والتأثير وسط مجموعة من النوابغ.

ودعت مي مثقفي القاهرة ومثقفاتها إلى اللقاء أسبوعياً يوم الثلاثاء في منزلها، وتجاوب كبار الأدباء والمفكرين من الجنسين مع دعوتها، ودهشوا لبراعتها في إدارة الحوار في جلسات المنتدى، وتوجيهه الوجهة الصائبة، وممن حضر إلى منتداها: الشعراء أحمد شوقي وإسماعيل صبري وخليل مطران وولي الدين يكن وحافظ إبراهيم، والأدباء عباس محمود العقاد وطه حسين ومصطفى صادق الرافعي وإبراهيم عبد القادر المازني، والمفكرون أحمد لطفي السيد ومحمد رشيد رضا وسلامة

موسى ويعقوب صروف، والناشطات في مضمار الدفاع عن حقوق المرأة جوليا طعمة دمشقية وهدى شعراوي وملك حفني ناصف وإيمي خير.

وظلت ميّ تدير جلسات المنتدى خمسة وعشرين عاماً متواصلة لا يثنيها عن ذلك طارئ من مرض أو سفر، وكان رواد المنتدى يستعجلون قدوم يوم الثلاثاء ليسعدوا برؤية ميّ ويسمعوا عباراتها العذبة أو يستمعوا إلى مقطوعات تعزفها في خاتمة كل جلسة، أو أغنيات تؤديها بصوتها الرخيم.

وقد ذكر الشاعر إسماعيل صبري شوق رواد منتدى ميّ لقدوم يوم الثلاثاء في بيتين يقول فيهما:

روحي على بعض أهل الحي حائمة

كظامئ الطير توّاقاً إلى الماءِ

إن لم أمتّع بميّ ناظريّ غداً

أنكرتُ صبحَك يا يومَ الثلاثاءِ

وقد وصف د. طه حسين منتدى ميّ زيادة فقال: "كان صالوناً ديمقراطياً مفتوحاً، وقد ظللت أتردد عليه أيام الثلاثاء إلى أن سافرت إلى أوربا لمتابعة الدراسة، وأعجبني منه اتساعه لمذاهب القول وأشتات الكلام وفنون الأدب، وأعجبني منه أنه مكان للحديث بكل لسان، ومنتدى للكلام في كل علم".

وذكر عباس محمود العقاد أحد رواد منتدى مي براعة المضيفة في إدارة الحوار وتوجيهه فقال: "ما تتحدث به مي ممتع كالذي تكتبه بعد روية وتحضير، فقد وُهبت ملكة الحديث، وهي ملكة التوجيه وإدارة الحديث بين مجلس المختلفين في الرأي والمزاج والثقافة واللغة". مي وأعلام عصرها ص٢٥١ -٢٦٣

وكان منتدى ميّ زيادة الوحيد في القاهرة تلك الأيام، الذي أدارته امرأة، واستقبلت فيه ضيوفاً من الجنسين، وساعدت مواقف مي المعتدلة في القضايا السياسية والاجتماعية على الجمع بين أنصار الآراء المختلفة، في مرحلة تصاعد فيها الاستقطاب السياسي، وكانت حوارات المنتدى حافزاً للإنتاج الإبداعي والفكري، إذ توالت إصدارات روّاده، وكثرت المناقشات النقدية حولها، وكسبت ميّ خبرة كبيرة من هذه المحاورات، وطلب منها عدد من ضيوف المنتدى وضع مقدمات لكتبهم ففعلت بحماسة، وأسعفتها الخبرة المتراكمة ومحاورة الشخصيات الثقافية الرفيعة وتشجيعها، في تأليف كتب عديدة، وقد وضع عدد من رواد المنتدى مقدمات لهذه الكتب.

وكان منتداها واحة ظليلة، ومحطة حوار ثقافي غني، وملتقى أناس ألّف بينهم حبّ الأدب، ووثّقت بينهم المعرفة، وجمعتهم الحكمة، بالرغم من تباين المشارب والمذاهب والأفكار والآراء.

ورأت المستشرقتان الألمانية أنيتي زيغلر والإسبانية كارمن برافو، والباحثة سلمى الحفار الكزبري التي حققت أعمال ميّ، وكتبت دراسات عديدة حول تجربتها أن منتدى ميّ قد أثر إلى حد كبير في إبداع مصطفى صادق الرافعي وأعماله النثرية عن الحب، كما أسهم في توسيع الجدل الذي دار حول كتاب الدكتور طه حسين "في الأدب الجاهلي"، الذي جرّ على صاحبه حملة انتقادية من التيار السلفيّ المتشدّد في الأزهر.

وشهد الشاعر أحمد شوقي بتأثير ابتسامتها وبيانها في من حولها فقال فيها:

أسائل خاطري عما سباني أحسن الخلق أم حسن البيانِ

رأيت تنافس الحسنين فيها كأنهما لميّة عاشقانِ

إذا نطقت صبا عقلي إليها وإن بسمت إليّ صبا جناني

وما أدري أتبسِمُ عن حنين إليّ بقلبها أم عن حنانِ

مي وعشاقها الأدباء ص٦٣

وشجعت ميّ زيادة النساء على تأسيس منتديات مماثلة، فكان هناك منتدى هدى شعراوي ومنتدى أماني فريد في القاهرة، ومنتدى ماري عجمي ومنتدى زهراء العابد ومنتدى ثريا الحافظ في دمشق، ومنتدى جوليا طعمة دمشقية ومنتدى حبوبة حداد في بيروت، ومنتدى صبيحة الشيخ داود في بغداد.

بين مي زيادة
وجبران خليل جبران

قرأت مي زيادة كتابات جبران خليل جبران التي نشرت في القاهرة، ولاقت اهتماماً طيباً في صحافتها، وأعجبت بآرائه وأشعاره، وخطر لها أن تراسله، وتحدثه عن كتاباتها ومشاريعها الأدبية، وتعبّر له عن رأيها بكتاباته المتحررة وأسلوبه الانتقادي، وتعرض عليه رأيها في كتاباته التي تناول فيها حرية المرأة، إذ وافقته في بعضها وعارضته في بعضها الآخر. وقالت في بداية رسالتها: "اسمي ميّ، وهو اختصار ماري العربية، وأوقّع باسم إيزيس كوبيا بالفرنجية، غير أنه لا هذا اسمي ولا ذاك، إني وحيدة والدي وإن تعدّدت ألقابي".

لمس جبران في رسالة مي الأولى نفساً مهمومة مثل نفسه، وأعجب بأسلوبها وجرأتها، وأرسل لها جواباً حدّثها فيه عن مخططاته، وأهداها نسخة من قصته "الأجنحة المتكسرة" الصادرة حديثاً، وطلب منها إبداء رأيها بالقصة.

قرأت ميّ القصة، وأعجبت بها، وكتبت رسالة إلى مؤلفها جبران تبلغه إعجابها بها، وبما قرأته من كتاباته، وعدّته أستاذاً لها في موضوعات كثيرة، وأعارت ميّ القصة لعباس محمود العقاد، وطلبت إبداء الرأي بها، فأبدى العقاد ملاحظات انتقادية على أسلوب جبران ولغته لم ترض عنها ميّ.

وتواصلت الرسائل بين ميّ وجبران، وتنامى بينهما حب عميق نادر متموج بين ذلّ الشكوى ومرارة البوح وعمق الصمت وقوة الاستمرار رغم بعد المسافة وتقلبات الأيام.

كانت مي في حياة جبران الصديقة والحبيبة الملهمة، وصلة الوصل بينه وبين وطنه، وقد أحب عقلها النيّر، وأعجب بمقالاتها وكتبها، وكان حبه لها معادلاً حبه لوطنه لبنان، ولروحانية الشرق، وملك خيالها قلبه حتى نهاية حياته. وتعلقت مي بجبران، ولم تلتفت إلى أحد من الكثيرين الذين خطبوا ودها في مصر ولبنان. وشغفت بكتاباته وعبقريته، وطرقت في رسائلها إليه موضوعات شتى عن الحب والزواج، وعن مكانة المرأة في الشرق ودورها في الحياة، ولم يتسن لها لقاءه.

وهذه نماذج من رسائلهما التي جمع بعضها في أعمالهما الكاملة، وضاع بعضها الآخر.

في ١١آذار عام ١٩٢٥ كتبت مي إلى جبران تقول:

"صديقي جبران

لقد توزع في المساء بريد أوربا وأمريكا، وهو الثاني من نوعه في هذا الأسبوع، وقد فشل أملي بأن تصلني فيه كلمة منك. نعم إني تلقيت منك في الأسبوع الماضي بطاقة عليها وجه القديسة حنة الجميل، ولكن هل تكفي الكلمة الواحدة على صورة كي تقوم مقام سكوت شهر كامل؟

لا أريد أن تكتب إليّ إلا عندما تشعر بحاجة إلى ذلك، أو عندما تنيلك الكتابة سروراً، ولكن أليس من الطبيعي أن أشرئبّ إلى أخبارك كلما دار موزع البريد على الصناديق يفرغ فيها جعبته. أيمكن أن أرى الطوابع البريدية من مختلف البلدان على الرسائل، حتى طوابع الولايات المتحدة، وعلى بعضها اسم نيويورك واضح، فلا أذكر صديقي ولا أصبو إلى مشاهدة خط يده ولمس قرطاسه؟

ولتحمل إليك رقعتي هذه عواطفي، فتخفف من كآبتك إن كنت كئيباً، وتواسيك إن كنت في حاجة إلى المواساة، ولتقوِّك إذا كنت عاكفاً على عمل، ولتزِد في رغدك وانشراحك إذا كنت منشرحاً سعيداً".

وكتب جبران إلى مي رسالة مؤرّخة في ٩شباط عام ١٩١٩ يقول:

"لقد أعادت رسائلك إلى نفسي ذكرى ألف ربيع وألف خريف، وأوقفتني ثانية أمام تلك الأشباح التي كنا نبتدعها ونسيّرها مركباً إثر مركب، تلك الأشباح التي ما ثار البركان في أوربا حتى انزوت محتجة بالسكوت، وما أعمق ذلك السكوت وما أطوله!

هل تعلمين يا صديقتي بأني كنت أجد في حديثنا المتقطّع التعزية والأنس والطمأنينة، وهل تعلمين بأني كنت أقول لذاتي: هناك في مشارق الأرض صبيّةٌ ليست كالصبايا، قد دخلت الهيكل قبل ولادتها، ووقفت في قدس الأقداس، فعرفت السر العلويّ الذي اتخذه جبابرة الصباح، ثم اتخذت بلادي بلاداً لها، وقومي قوماً لها.

هل تعلمين بأني كنت أهمس هذه الأنشودة في أذن خيالي كلما وردت رسالة منك، ولو علمتِ لما انقطعت عن الكتابة إلي، وربما علمت فانقطعت، وهذا لا يخلو من أصالة الرأي والحكمة".

وكتبت مي إلى جبران رسالة في ١٢كانون الثاني عام ١٩٢٤ تقول:

"حتى الكتابة ألوم نفسي عليها أحياناً، لأني بها حرة كل هذه الحرية، قل لي ما إذا كنت على ضلال أو هدى فإني أثق بك، وأصدق بالبداهة كل ما تقول، وسواء أكنت مخطئة أم غير مخطئة، فإن قلبي يسير إليك، وخير ما يفعل هو أن يظل حائماً حواليك، يحرسك ويحنو عليك". رسائل ميّ ص٣١-٣٩

دفاع ميّ عن حقوق المرأة

انشغلت ميّ زيادة منذ دخلت مضمار الكتابة والصحافة بالدفاع عن حقوق المرأة العربية، ونساء الشرق اللواتي حرم معظمهن من حق التعلم والتفتح والعمل والمشاركة في الحياة العامة، وقد ثابرت على دعوة المفكرين ورجال العلم والنساء المتعلمات إلى التعاون، وتقديم كل عون ممكن من أجل بلوغ هذا الهدف.

وكان همها في حواراتها ومراسلاتها، وفي مقالاتها وكتبها أن تشير إلى الطرق والوسائل التي تساعد المرأة في الحصول على حقوقها الطبيعية.

وقد أبدت في كتابها "المساواة" نقداً للخطاب الاشتراكي لأنه يبسّط مفهوم المساواة، ورأت أن مفهوم العدالة أكثر واقعية وملاءمة للطبائع البشرية والحاجات الاجتماعية.

وقالت في رثاء باحثة البادية ملك حفني ناصف: "وكما أصابت في لمس مواضع النقص وتشخيص العلل القومية، كذلك رأت ببصيرتها النقية أصوب طرق الإصلاح اعتدالاً وأقربها اتفاقاً مع سير الارتقاء الطبيعي". كلمات وإشارات ص١١٥

ياسمينة النهضة والحرية

كأن ميّاً كانت مأخوذة بمقولة دانونتزيو: "قلبي لا يكل ولا يتعب، في وسعي أن ألمس النفوس الكبيرة فأسمو بها إلى شاهق الأجواء، حيث جلال العمل وبهاء الحلم يتلاقيان في ذروة واحدة"، وتضيف: "لدي الموهبتان العظيمتان اللتان تنيلاني العمر اتساعاً وعمقاً، وتذهبان به إلى ما وراء وهم الموت: لست أتهيب الألم، وأشعر بأن أفكاري وأعمالي قد فازت بطابع البقاء، إن في بعض جوهري ما يكفي لتغذية أرواح الجبابرة". مقدمة كتاب الصحائف ص١.

واحتلت ميّ زيادة مكاناً مرموقاً في مشروع النهضة العربية الثقافي والإبداعي، إلى جانب أعلامه البارزين الذين ثابروا على حضور منتداها الأسبوعي يوم الثلاثاء، وأعجبوا بلباقتها وطريقة إدارتها للحوار، وتبادلوا معها الرسائل حين سافروا بعيداً عن القاهرة، أو حين سافرت هي إلى أوربا، وامتدحوا

مقالاتها وكتبها التي أصدرتها، كما أهدوها كتبهم، وطلبوا منها أن تكتب مقدمات لها.

وتوضح الرسائل والشهادات والمذكرات التي كتبها أعلام النهضة ورواد منتداها الأسبوعي مكانتها الرفيعة في دعم المشروع التنويري والتحرري للمرأة، وفي تعميم الثقافة وتطويرها.

وقد نظم عدد من كبار الشعراء قصائد تؤكد مكانة مي والتقدير العالي الذي استحقته عندهم، ومن هؤلاء ولي الدين يكن وعباس محمود العقاد وأحمد شوقي وحليم دموس وإسماعيل صبري وفوزي المعلوف، وترقى رسائل جبران إليها إلى مرتبة الشعر.

فهذا حليم دموس يعترف بأنها ملهمة للمبدعين ويقول:

ذكر الخاطر يوماً عهد ميّ   فسرت آيته الكبرى إليّ

واستمر الوحي من عليائها   فإذا الشعر به طوع يديّ

فصورة مي تلهم الشاعر أعذب الأبيات، وتسلس له قياد القصيدة.

وهذا فوزي المعلوف يهديها موشحاً أثناء تكريمها في دمشق قال فيه:

ويـا كتـابي الخجـولا

جـزِ المحـيط الطـويلا

حتـــى تجـــيء النـــيلا

فقــف هنــاك قلـــيلا

هنــاك تحظـى بمـــيّ

ذات الـــــيراع الأبـــــيّ

ذات البيــــان الطلـــيّ

مـن تبعـث السلـسبيلا

بكـــل معنـــى جلـــيّ

وكانت مـيّ قد فجعت بفقده وهـو في ريعان الشباب، وَرثتْـه برسـالة بعثتـها إلى والـده في ٢٦تـشرين الأول عـام ١٩٣١ قالـت فيها: "شعرت كغيري أن فقيدكم فقيد الجميع، وأننا كلنا أهل لـه، نُعـزّى علـى فقـده، وكـم مـن سـاعة قـضيتها في تـصفح كتابـه "الملحمة" أتبعـه في الآفـاق يحلـق فيهـا، نـاظرة إلى العـالم نظرتـه، شاعرة شعوره، متخيلة بخياله، محاولة إدراك كل ما يبتكره من المعاني الشعرية الفلسفية البديعة، في حلاوتها ومرارتها، إن فيـه لحماســة الفتيــان وحكمــة الــشيوخ، وغــضاضة الربيــع وكآبــة الخريف، ولطف الابتسام ولوعـة البكاء، وروعة المعلوم ودهـشة المجهول".

وذكر طه حسين حسنتين لميّ من بين كثير من حسناتها: منتداها مجمع المثقفين والمفكرين، وتأثرها بمحاضرة أحمد لطفي السيد عن أبي العلاء المعري، وقد وضع د.طه حسين كتابين عن أبي العلاء المعري أولهما: مع أبي العلاء في سجنه، والثاني: تجديد ذكرى أبي العلاء.

وقد لقبها وليّ الدين يكن ملكة دولة الإلهام، ولقبها خليل مطران فريدة العصر، ولقبها مصطفى صادق الرافعي سيدة القلم العربي، ولقبها شكيب أرسلان نادرة الدهر، ولقبها د. يعقوب صروف الدرة اليتيمة، ولقبها الأب أنسطاس الكرملي حلية الزمان، ولقبها الشاعر شبلي الملاط نابغة بلادي، ولقبها مصطفى عبد الرازق أميرة النهضة الشرقية، ولقبها فارس الخوري أميرة البيان، ولقبها عبد الوهاب عزام النابغة الأديبة، وخاطبها المستشرقون الذين راسلوها أمثال لويس ماسنيون وكارلو ألفونسو نالليو وجوزيف شاخت دون تزويق أو لقب، أما مدرس الفلسفة الإسباني الكوندي دي غالارزا فقد ختم رسالته إليها بالقول: "أخوك في الفلسفة".

وقد طلب منها ويندل كليلاند رئيس الجامعة الأميركية بالقاهرة أن تلقي محاضرات في الجامعة حول محور "الآثار الاجتماعية للاكتشافات والمؤسسات العظيمة" وقد ألقت ثلاث محاضرات هناك.

وحثها الشاعر وليّ الدين يكن في رسالة إليها على أن تجمع مقالاتها "سوانح فتاة" في كتاب وقال: "يا بيت القصيد في بدائع القدرة، لا أدري ما أصف: مجلسك الطيب أم صوتك الرخيم أم كلامك العذب أم فكرك المنير، أقل ما في هذه الملاحات يدقّ عن فهمي، ويعيى عن الإحاطة به إدراكي، أنت كالطبيعة في كل بدائعها، ولكنها متقلبة وأنت ثابتة".

مؤلفاتهـا

جمعت مـي مقالاتها وخواطرهـا في كتـب مطبوعـة، وأعـدت ترجمـة لناشـطات في الحقـل الأدبـي والاجتمـاعي، ومـن هـذه الكتب:

- "وردة اليازجي" طبع بمطبعة البلاغ بالقاهرة عام ١٩٢٤
- "الصحائف" مقالات مختارة طبع بالمطبعة السلفية بالقاهرة عام ١٩٢٤
- "شاعرة الطليعة عائشة تيمور" طبع بمطبعة الهلال بالقاهرة عام ١٩٢٤
- "سوانح فتاة" خواطر مختارة طبع بمطبعة دار الهلال بالقاهرة عام ١٩٢٢
- "المساواة" طبع بمطبعة دار الهلال بالقاهرة عام ١٩٢٢
- "ظلمات وأشعة" طبع بمطبعة دار الهلال بالقاهرة عام ١٩٢٠

- "كلمات وإشارات" طبع بمطبعة دار الهلال بالقاهرة عام ١٩١٩

وترجمت عدداً من الكتب نذكر من بينها:

- "رجوع الموجة" رواية للفرنسي برادا طبعت بمطبعة مصر عام ١٩٢٠
- "ابتسامات ودموع" رواية للألماني مكس مولر عنوانها "الحب الألماني" واختارت لها مي العنوان الأول، وطبعت بمطبعة مصر عام ١٩١٣، وأهدتها إلى أخيها الذي توفي طفلاً دون أن تراه.

انطفاء ميّ زيادة

شكل رحيل جبران خليل جبران عام ١٩٣٢ بداية مأساة مي زيادة وأفول حضورها، فقد أغلق المنتدى، ورحل الأحبة وحل الاكتئاب محل البهجة والتفاؤل، وطبيعي أن تسبب الصدمات المتلاحقة اهتزازاً في توازن الإنسان، وقد أدخلت بحيلة إلى أحد مشافي الأمراض النفسية في لبنان، ووضع أحد أقاربها يده على ممتلكاتها، وزارها أمين الريحاني بعد مدة، ووجدها في حال بائسة، فشكت له جحود الأصدقاء، ولامته على تأخره في إنقاذها من محنتها.

وعزمت مي أن تهدي مكتبتها الكبيرة إلى مصر، ونسخة من الكتب المزدوجة الكثيرة لديها إلى لبنان، وظلت حتى آخر أيامها وفية لأصدقائها واثقة بنهوض المرأة في الشرق وانتصار قضيتها.

وقد كتبت روز غريب صاحبة كتاب "مي زيادة التوهج والأفول" تقول: "بانطفاء مي انقضى عصر العمالقة، انطفأت

البسمة عن وجه الأدب العربي، وطلع علينا أدب كالح الوجه ينذر بالعواصف والكوارث، أدب التشاؤم والضياع، أدب التمرد والعبث واللامعقول".

ويظل لمي زيادة فضل الريادة وإجادة الكتابة، وحسن مخاطبة الأسماع، فكانت قيثارة هزت أنغامها القلوب الراكدة، ونسمة هبت على وادي النيل فردّت إليه الروح، وأيقظته من سباته الطويل، وكانت صوت محبة تجاوبت معه أفئدة المبدعين وعقولهم، فاختصر المسافة، وقهر الزمن، مانحاً صاحبته شرف الحضور الدائم، كاسحاً بقوة وداعته ثقل الغياب أو التغييب.

مصادر الدراسة

- سلمى الحفار الكزبري: تحقيق الأعمال الكاملة لمي زيادة – مؤسسة نوفل – بيروت – طبعة أولى ١٩٧٥
- سلمى الحفار الكزبري: مي زيادة مأساة النبوغ – مؤسسة نوفل – بيروت – طبعة أولى ١٩٨٧
- سلمى الحفار الكزبري: مي وأعلام عصرها – رسائل مخطوطة لم تنشر – مؤسسة نوفل – بيروت – طبعة أولى ١٩٨٢
- سلمى الحفار الكزبري: مي وأعلام عصرها – مؤسسة نوفل – بيروت – طبعة أولى ١٩٨٢
- عبد اللطيف شرارة: مي زيادة – دار صادر – بيروت – طبعة أولى ١٩٦٥
- فاروق سعد: باقات من حدائق مي – منشورات زهير بعلبكي – بيروت – طبعة أولى ١٩٨٠

- محمد عبد الغني حسن: مي أديبة الشرق والعروبة – عالم الكتب – القاهرة – طبعة أولى ١٩٦٥
- حسين محمد عمارة: أحاديث عن مي زيادة – دار قتيبة – دمشق – طبعة أولى ١٩٨٢
- روز غريب: مي زيادة التوهج والأفول – مؤسسة نوفل – بيروت – طبعة أولى ١٩٧٨
- محمد كامل الخطيب: قضايا وحوارات النهضة العربية، كتاب قضية المرأة، الجزء الثاني – وزارة الثقافة – دمشق – طبعة أولى ١٩٩٩
- د.جميل جبر: رسائل مي – منشورات مكتبة بيروت – طبعة أولى ١٩٥١
- أنطوان فوال: نصوص خارج المجموعة – دار أمواج – بيروت – طبعة أولى ١٩٩٣
- مي زيادة: سوانح فتاة – دار الهلال – القاهرة – طبعة أولى ١٩٢٢
- مي زيادة: وردة اليازجي – مطبعة البلاغ – القاهرة – طبعة أولى ١٩٢٤

- مي زيادة: ظلمات وأشعة – منشورات دار بيروت – طبعة ثانية ١٩٥٢
- مي زيادة: المساواة – دار الهلال – القاهرة – طبعة أولى ١٩٢٢
- أحمد الطويلي: مي زيادة وعشاقها الأدباء – المطبعة الرسمية بتونس – طبعة أولى ٢٠٠٣
- عمر الدسوقي: في الأدب العربي الحديث – دار الفكر العربي بالقاهرة – طبعة خامسة ١٩٦١
- د.ماجدة حمود: رواية الحب السماوي بين جبران ومي – دار الأهالي بدمشق – طبعة أولى ١٩٩٧

الفهرس

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م
عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة

نستحضر تجربة الرائدة النهضوية والأديبة مي زيادة بعد سبعة عقود ونيف من رحيلها، وندهش لسعة اطلاعها على الآداب والفنون العربية والغربية. ونجد في أسلوبها الرشيق وفي كتاباتها الصحفية، والإبداعية الشعرية والنثرية، طلاوة ومتعة.

وقد شهد لها كبار مثقفي القرن الماضي الذين عرفوها بالبراعة في إدارة الحوار.

واستذكار مي، وتعريف الناشئة بتجربة غنية، لمبدعة أعطت بسخاء، وبثت روحها في كتاباتها وفي أرواح أصدقائها الكثر.

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٢٣٢١١٦٤
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٥٠ ل.س أو ما يعادلها